غادة بابل

La Belle de Babylone.

—٧—

اخذ بيروس يترقب اخبار شمشو ويتوقع نعيه اليوم بعد اليوم فاقبل احد الفلاحين القادمين من ضواحي مدينة اوبي ومعه غلات اتى بها الى الهيكل وهو يقص على جماعة من اصحابه في ساحة الهيكل نبأ موت احد المسافرين من بابل الى أشور فجأة في الطريق . فطرق هـذا الحديث سمع الكاهن الكلداني فتقدم من المحدث مستوضحا منه الخبر اليقين ، سائلا عنه اسم المتوفى . فلم يتمكن الفلاح من معرفة اسم الميت إلّا أنه قال له : وقع الي ان الرجل مات مسموما .

وبعد هنيهة سمع بيروس رجلا آخر قادما من تلك الديار ايضا يروي الخبر بعينه ويقول ان المتوفى يسمى شمشو او إنه من رجال القافلة التي فيها تاجر يسمى شمشو. فاستبشر كاهننا بهذا النبأ وقال في نفسه : لقد اصاب سهم دسيسي شمشو في صميمه فارداه .

تناقلت الالسنة نعي ذلك الشاب فانتشر في المدينة ولا سيما ان بيروس كان يسعى في اذاعته ويظهر للملأ تأسفه كذبا : فبلغ حديث هذه الفاجعة بيت شلمان كرادو وبيت اجيبي وكان لهذا النعي رنة حزن واسى رددت صداه مدينة بابل. وكان وقعه عظيما في قلبين غضين كان كل منهما ينتظر اوينوق ان يكون الفقيد شريك حياته في المستقبل وهما قلب شميرام وقلب سترآ.

مهما كان الحزن الذي خامر قلب شميرام عظيما لفقدانها ابن عمتها إلّا انها كانت تسترشد بنور عقلها ولا تستسلم للحزن والكدر بل كانت صابرة على هذه البلوى تتسلى بقراءة الحكم وبمطالعة رقم العلم والاداب.

اما سترآ. فانها لم تتمكن من ضبط عواطفها بل اخذها حزن نغضت له جوانحها ، ووجـد تفطرت له مرارتها وباتت تعالج برحاء الهموم سرا وتغص

بآلامها وهي تتكتم حتى استولى عليها اليأس والقنوط وداهمتها حمى مطبقة عقبها هذيان واشتراك الخاطر فكانت تردد الفاظا وهي غير شاعرة بما تقول ولا يجد لها سامعوها معنى . وكان بينها «رحل ... تركني ... لا يعود ... مات ... أتبعه ... ثم تبكي فتأخذها رعشة عصبية ويغشى عليها فتغيب عن حواسها .

اجتمع الاهل والاصدقاء حواليها وكل منهم يبدي رأيا فهذا يقول ان الاله والالاهة اللذين يحميانها قد تركاها . والاخر يقول: لقد استولت عليها الارواح الخبيثة فهي تؤذيها . والثالث يقول يجب ان نستدعي الكاهن الفلاني المشهور بقوة سحره وسعة علمه ليرى مافيها، وغيره يعارضه ويفضل على الكاهن المذكور كاهنا آخر قد جربه في الحادث الفلاني . وفي الاخر اتفقت آراء الاهل والاقربين على طلب احد الكهان فارسلوا اليه من يستقدمه .

جاء الكاهن متأبطا حزمة فيها كل ما يلزمه من العدد للقيام بمهمته فنزع حذاءه وتطهر بالغسل وتقدم من المريضة وبعد ان فحص رأسها ووجهها وتفقد حالها قطب حاجبيه لانه رأى حالتها الروحية والجسدية تنذر بخطر ولكنه لم ييأس اذ يثق بالالهة وبقوة سحره التي تترضاها وتطرد الارواح الشريرة التي تعذبها .

لم يصر الكاهن على نقل المريضة الى الهيكل للقيام بشعائر الدين بل رضي ان تتم في دارها لان مرضها ثقيل .

القى في النار نباتا مقدسا فالتهب وعبق الغرفة برائحته الذكية واخذ يمطرها بوابل سحري وتمتم عليه صلوات وادعية لطرد الارواح الشريرة واشربه حتر آه .

وقرأ في رقيم استله من تلك الرزمة دعاء البهلة بصوت ثابت وموقع فقال :

سطت البهلة على الانسان كشيطان وهبط عليه صوت الساحر كضربة وهجم عليه الصوت الخبيث والبهلة المؤذية وضرر السحر والصداع تذبحه البهلة المؤذية كما يذبح الحمل . اذ ان الاله حاميه قد ترك جسده وابتعدت عنه الالاهة حاميته . وامتد عليه الصوت الذي يقرعه كثياب المخلع .

مهما كانت قوة نفثات السحر عظيمة ومهما كان المرض شديد الوطأة فالالهة

لاتترك هذه الابنة بين انياب الروح الشرير . فها ان مرودخ يخاطب أباه «أيا» ويتهل اليه لانقاذ هذه الفتاة ويقول له : يا ابت البهلة الشريرة قد امتدت الى هذه الفتاة كشيطان » ويكرر سؤاله عما يجب ان تفعله هذه الفتاة لتشفى » .

يجيبه ابوه « ايا » قائلا : بماذا احدثك يامرودخ وماذا اقول لك وانت لا تعرفه فالذي اعرفه تعرفه انت ايضا : اذهب اذن وخذ هذه الفتاة الى الحمام الطهور وابعد عنها اذى السحر واطرد نفثاته المضرة لترتفع عنها البهلة التي سببت لها الالم المعذب جسمها سواء أكانت بهلة ابيها ام بهلة امها ام بهلة احد الاذنين او بهلة اي كان غير معروف ، لترتفع عنها بطلسم « ايا » وتتلاشى كما يقشر سن الثوم وكما تقطع الثمرة وكما ينتزع الغصن المحمل ازهارا .

آه من اذى السحر ! عزم ياشبيه (١) السماء عزم ياشبيه الارض عزم فان الالهة تتذرع بما لديها من الحول والقوة لشفاء المريضة وها ان « ايا » سيد العالم يعطف عليها ويصف لها الدواء الناجع .

لتأخذ سن ثوم وثمرة وغصنا مثقلا بالازهار وتلقيها في النار قطعة قطعة وهي تتلو رقية . فتتلاشى مؤثرات البهلة مهما كانت عظيمة .

تطهرت حترا عملا بمشيئة « ايا » فغسلت يديها ورجليها ووجهها ورشت جسمها بماء معطر . ولما انتهت من هذه المقدمات جلس الكاهن امام الموقد مع المريضة وجرد سن الثوم الذي طلبه الاله واحرقه وهو يتمتم صورة الدعاء الآتي : «كما قشر هذا الثوم والقي في النار ويفنيه السعير المتأجج فلا يغرس بعد هذا في البستان ولا يغمره ماء البحيرة أو الساقية ولا تغور جذوره في الارض ولا تنمو ابدا ساقه ولا يرى الشمس ولا يتخذ طعام للالهة . وللملك كذلك ليطرد بقدرته مرودخ قائد الالهة اذى السحر من حترآ ويقصيه بعيدا ويحل وثاقه الشر المضر ، شر الخطيئة والذنب والوقاحة والجرم .

وكان يجب على حترآ ان تجيبه إلا ان خور قواها واضطراب افكارها منعاها من القيام بواجبها فنابت عنها والدتها وقالت بصوت خافت :

(١) ان لفظ « شبيه » الوارد هنا هو نتيجة اعتقاد الاولين ان لكل كائن شبيها له في صورته يأتي معه الى الارض .

هل للمرض الذي في جسمي ولحمي واعصابي ان يزول عني كما زال القشر من سن الثوم هذا ، ويضمحل بالسعير المتأجج في هذا اليوم . اخرج يا اذى السحر ليتسنى لي ان اشاهد النور مدة مديدة ايضا .

وكانت تعاد هذه الرقية كل ما القى الكاهن شيئا جديدا في النسار من تمر وغصن محمل وورد وسيخة صوف وشعر معزى وخيط مصبوغ وباقلا ويضيف كل مرة عبارة او بعض عبارات الى دعاء الرقية مما يناسب القطعة الملقاة في النار وعدم رجوعها الى اصلها أو الانتفاع منها . »

ولما طال الامد على حترآ ، والكاهن يعزم خارت قواها لانتشار الضعف فيها فسملت الى فراشها وهي بين الحياة والموت . إلّا ان الكاهن تظاهر بالاستبشار بهذه الحال زاعما انها من تباشير الشفاء لان الالهة الصالحين تكافح الارواح الشريرة . ولم تصبر قوة حترآ على هذه المصارعة بين القوتين الصالحة والطالحة . فاذا مر هذا النور القصير وانتصرت الالهة شفيت المريضة لا محالة .

ختم الكاهن هذه الشعائر بدعاء الى « أيا » ومرودخ وآله النهار كما يأتي :

ايتها النار الرئيسة المتحركة المنتشرة في البلاد . البطلة ابنة الهاوية التي انتشرت في البلاد . يا آله النار يا من يبارك المقدسة اوجدت النور في دار الظلمات . انت الذي تعين الاقدار على كل ما له اسم . انت الذي تمزج النحاس والقصدير باذابتهما . انت الذي تنقي الفضة والذهب . وانت الذي ترعد الاشرار في الليل . اجعل اعضاء هذه الفتاة التي رجعت ابنة لالاهها زاهية بالطهارة ولتكن نقية كالسماء وزاهية كذلك على الارض لتتلألأ كما في وسط السماء وان اللسان الخبيث الذي سحرها لا يعود فيقبض عليها (١) .

توالت الايام على حترآ ، والكاهن يكرر هذه الرقية صباح مساء وهي تزيد سقما ووطأة مرضها تزيد شدة . وبينما كان ابوها يسير ذات مساء في طرق بابل سمع النساء الجالسات على قارعة الطريق عند ابواب دورهن وبايديهن مغازلهن يتحدثن عن مرض ابنته ويظهرن اسفهن على شبابها الغض . فقالت احداهن : ان

(١) راجع G. Maspéro: Au Temps de Ramsès et d' Assourbanipal P. 264-68 Z. A. Ragzion : Chaldea 161-63 .

هذه الفتاة المسكينة اصيبت بتبعة اعمال ابيها الصراف الظالم الذي يقرض الفضة للايامي بربا فاحش ويسلبهن املاكهن وعقاراتهن بثمن بخس فيلوع قلوبهن . ويجور على العبيد فيشغلهم في حقوله وعمران دوره من شروق الشمس حتى غيابها . فالالهة سمعت نحيب منكسري القلوب واتت اليوم تنتقم من الصراف العاتي بمرض ابنته الوحيدة مرضا لا يرجى شفاؤه ولا ينتظر برؤه .

ارتعد شلمان كرادو من هذا التبكيت وتذكر دعاء احدى الايامي اللواتي ابتاع منها قسرا عقارا ثمينا بسعر بخس فاخذ طريق هيكل اشتر ليقرأ فيه نشيد الندامة كفارة عن خطاياه لان النفس اذا اثقلت بالهموم تصغر وتلجأ الى قوة عظيمة مادية أو معنوية تستغيث بها وتستند اليها في ضعفها فتجد فيها نورا تنبثق اشعته فتضيء دياجير النفس الكئيبة .

وقف بين يدي كاهن واتخذه وسيطا بينه وبين الالاهة وقال هذه الترنيمة:

شلمان كرادو : الخاطيء

ارمقي بنظرك وهن الخلائق الحية — فها اني عبدك اصرخ اليك ممتلئا تنهدات — اقبلي من اخطأ والتجأ اليك — ان نظرت الى انسان حيي ذلك الانسان — يا سيدة الجنس البشري الكلية القدرة انت شفيقة بمن يقصد الرجوع اليك . اقبلي طلبتي .

الكاهن :

لان آلهه والاهته قد حنقا عليه فانه يصرخ اليك — حولي وجهك اليه وخذي بيده .

شلمان كرادو (الخاطيء)

ليس من الاهة مرشدة غيرك — انظري الي رفقا . اقبلي تضرعي — تكلمي . فها ان الغفران قد منح ليهدئ فؤادك فالى متى؟ آها يا سيدتي . حولي وجهك اليه اني كالحمامة انوح وقد شبعت تنهدات .

الكاهن :

بالحزن والالم امتلأت روحه تنهدات — يسكب دموعا ويتنهد رائيا (١)

يوسف غنيمة

(1) Rawlinson : IV. 29. No, 5.